مَوْسُوعَةُ
فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ المنَافِقُونَ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد القرآن الزكية

سورة المنافقون

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة المنافقون

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ١ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ٣ وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٤﴾

انطلقت وبدأت سورة المنافقون بالكشف عن حقائق المنافقين، وتعرية مسلكهم، وعلامات نفاقهم التي يتسترون بها. بشهادة الله تعالى عليهم من فوق سبع سماوات بأنهم يكذبون حتى في شهادتهم المخالفة لما يعتقدون في حق الرسول صلى الله عليه وسلم. فقال سبحانه وتعالى ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ توجه الخطاب من الله تعالى إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، كاشفاً له عن حقيقة شهادة المنافقين له صلى الله عليه وسلم بأنهم يشهدون ويصدقون بأنه رسول من الله تعالى. بينما هم يكذبون فيما قالوا من الشهادة. فإن قولهم مخالف لما يعتقدون ويضمرون ويُبطنون من إنكار نبوته عليه الصلاة والسلام. لأن النفاق هو إظهار الإيمان وإبطان الكفر. فإن قولهم مخالف ومضاد لما يعتقدون من الكفر.

فيقول الله تعالى لرسوله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ إذ قَدِم عليك المنافقون فإن حالهم هو إعلان الشهادة برسالتك ونبوتك ﴿قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ نُعلن ونشهد ونعترف لك بأنك رسول الله إلى الناس، فيقرون بدينه وشريعته. وأما حقيقتهم فإنهم على خلاف ما يُعلنون من الشهادة. فقد أضمروا في صدورهم غير ما أظهروا بشهادة الله تعالى عليهم. فقال عَزَّ وجل ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ إن ربك يعلم بأنك رسوله كما قال المنافقون ظاهراً بألسنتهم، ويشهد بأنهم كاذبون فيما أظهروا، لأنهم يبطنون الكفر. وكذلك تُعطي دلالة: فإن ربك يعلم بأنك رسوله، سواء قال المنافقون بذلك أو لم يقولوه.

فإنه يكفيك أيها الرسول أن ربك الله تعالى يعلم أنك رسوله. مما يعني: أن الله تعالى معك، ولا ينقص نفاقهم من قدرك شيئاً. فيكفيك علم الله تعالى بك. فَأَعْظِم به من علم، وأعظم بها من منزلة وإشادة تُغني الرسول صلى الله عليه وسلم عن كل شهادة من البشر. وفي هذا تقوية لعزيمة الرسول صلى الله عليه وسلم في اللحظة التي يكشف فيها سبحانه وتعالى عن كذب هؤلاء المنافقين. بل من قوة مقت الله تعالى لهم أن أعلن عَزَّ وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمنافقين ولغيرهم أنه يشهد على كذبهم جَلَّ جلاله. فقال سبحانه وتعالى ﴿ **وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ** ﴾ فإن ربك لعلمه أيها الرسول بعباده وبما في قلوبهم فإنه يشهد على أن المنافقين كاذبون في شهادتهم، لأنهم يضمرون الإنكار والتكذيب لك.

وقد أورد البيان شهادتهم بالتأكيد الجازم الذي يُظهر إخلاصهم في الشهادة المخالفة لِمَا في قلوبهم، فقد أكدوا ذلك أولاً بالشهادة: التي تعني كمال التصديق ﴿ **قَالُوا۟ نَشْهَدُ** ﴾ أي: نقر ونصدق بتمام معرفتنا بأنك رسول الله. ثم أكدوا ذلك بنون التوكيد الملتصقة بكاف المخاطب ﴿ **إِنَّكَ** ﴾ ثم ثالثاً باللام المتصدرة للرسول صلى الله عليه وسلم مع الضمير المتصل العائد على الله تعالى ﴿ **لَرَسُولُهُۥ** ﴾ بما يبين قوة الجزم منهم، حتى يطمئن إليهم الرسول عليه الصلاة والسلام، فيعاملهم معاملة المؤمنين، فيخبرهم بأسرار ومقتضيات دعوته، وما سوف يهم به من شأن وأمر. ثم من دقة البيان أن قرر الله تعالى علمه بظاهرهم الذي يثبتون به أنه صلى الله عليه وسلم رسول من الله تعالى، وهو على خلاف ما يبطنون من النفاق. فقال تعالى ﴿ **وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ** ﴾ فإن الله ربك يشهد لك بأنك رسوله عليه الصلاة والسلام. مما يعني ويفيد بأن الله تعالى يشهد بأن بواطنهم على خلاف منطوقهم.

ثم يخبر اللهُ سبحانه وتعالى عن حقيقة أيمانهم التي يعلنون بها تصديقك أيها الرسول، عليه الصلاة والسلام، بأن أيمانهم الفاجرة، التي يقسمونها لك إنما هي من أجل أن تكون وقاية وسترة لهم، حتى يحفظوا بها أموالهم ودماءهم. فقال تعالى عنهم ﴿ **ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ** ﴾ فقد تمنعوا وتحصنوا بأيمانهم الكاذبة التي يقسمون بها أنهم يؤمنون بأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم في الخفاء يصدون أنفسهم وغيرهم عن طريق الله المستقيم. فبئس ما هم عليه من النفاق.

وقد انطلقت الآية الكريمة في كشف وتحليل مسلكهم بأدق التفاصيل. فقال تعالى عن أهدافهم التي يُبطنونها أنهم ﴿ **ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً** ﴾ استعملوا الأقسام الفاجرة، والحلف بالله تعالى كذباً وزورا

﴿ جُنَّةً ﴾ أي: وقاية ومَنَعَة يمتنعون بها عن أن يُشَكَّ في إيمانهم، لإيهام الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بأنهم مؤمنون، ولهم ما للمؤمنين. حتى لا يصيبهم ما يؤذيهم من المؤمنين. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى عن قوله تعالى ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً ﴾ أي: سترة يستترون بها كما يستتر المستجن بجنته في حرب، وقتال، فيمنعون أنفسهم وذراريهم وأموالهم، ويدفعون بها عنها[١] بينما هم أعوان لأعداء الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين.

ثم يخبر الله تعالى بالمزيد من أهدافهم التي يريدون التأثير بها على غيرهم حتى يصدوهم عن دين الله تعالى وهداه ﴿ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي: أنهم يردون ويصدون الناس عن طريق الله تعالى، الذي يؤدي إلى خير الدنيا والآخرة. وذلك بتشكيك غيرهم من الناس في رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم. مما يبين عظيم جُرمهم في الاستخفاف بمعصيتهم لله تعالى.

ثم يوبخهم اللهُ سبحانه وتعالى، ويوبخ مسلكهم بأشد أنواع الذم الذي يبين فظاعة نهجهم النفاقي. فقال تعالى ﴿ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ فبئس صنيعهم من النفاق الذي يقومون به، من الكذب والتحايل، وصد الناس عن سبيل الله تعالى. فقد ساء صنيعهم واعتقادهم بأنهم ناجون بهذا النفاق مما سيصيبهم من العذاب والهلاك. فما أعظم هذا الْجُرم الشنيع، الذي بلغوا به هذا السوء العظيم. مما يبين أن الاستكبار والحسد يصنع من صاحبه قوة مناكفة للحق وأهله، وأنه يحرم نفسه الخير مقابل الرغبة في إخماد مَن يحسدهم، ويريد أن يستعلي عليهم. وإذا كان هذا فيما يَحْرِمُ به الإنسانُ نفسه من سعادة الدنيا والفوز بالجنة، فكيف إذاً هو صنيع المستكبر مع ما هو دونه من أمور الحياة الدنيا. مما يبين أهمية الانتباه لمصارع الحسد والكبرياء، وأن يعالج الإنسان نفسه من ذلك. بالتواضع للحق أينما كان.

ثم يخبر الله تعالى عن سبب وعلة معاقبتهم بالطبع على قلوبهم. فإن هذه العقوبة بسبب خروجهم عن الإيمان بعد أن آمنوا. فقال تعالى ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴾ إن هؤلاء المنافقين لم يثبتوا على الإيمان الذي دخلوا فيه ابتداء ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ﴾ ذلك بأنهم دخلوا في الإيمان، وعرفوا الحق، ثم اتخذوا المسلك النفاقي الذي سلكوه، ودأبوا عليه من الخداع والتحايل، بسبب أنهم آمنوا ﴿ ثُمَّ كَفَرُواْ ﴾ أي: كفروا بعد إيمانهم، واتخذوا مسلك النفاق طريقاً ومنهجاً ومسلكاً لهم، فَيُظهِرُوا الإيمان ويُبطِنُون الكفر. فكان عقاب الله تعالى لهم بأن طبع قلوبهم على ما هم عليه من الكفر ﴿ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ ﴾

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٥١/٢٢)

والطبع هو الختم على قلوبهم بما هم عليه من الكفر، بحيث لا ينتفعون بما يسمعون من المواعظ والحجج، والبراهين التي تُتلى عليهم ﴿ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ فأصبحوا لا يفقهون من الحقائق الْمُوجِبة للإيمان شيئاً. مما يبين أن الإيمان هو ما وقر في القلب وصدقه العمل بدين الله تعالى. وأن الادعاء بالإيمان ظاهراً، والقلب على كفره باقياً، فإنه لا ينفع صاحبه، فإن مظاهر الإيمان مع بواطن الكفر هو كفر. فالمنافق مع الكافرين في العذاب.

وأفاد البيان الكريم التحذير من الخداع في الدين، وأن الله تعالى قد يعاقب العبد المصر على ما هو عليه بتثبيته على بغيه وكفره. كما أفاد التوجيه والبيان الكريم أن مصدر التلقي، ومركز الإيمان هو القلب ﴿ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ فالطبع هو الختم على القلب بما شاء الله تعالى أن يختم به على العبد. مما يفيد الحذر من التمادي في المعصية، وأن على الإنسان أن يتوب إلى الله تعالى، ويخاف مقام ربه عَزَّ في علاه. كما أفاد البيان الكريم أن المنافق هو الذي اختار هذا المسلك، بعد أن عرف الإيمان على حقيقته، ولكنه آثر الخبث والباطل على الحق والنجاة.

ثم يخبر الله تعالى بالمزيد عن مواصفات المنافقين الجسمية، والأخلاقية، ولحن القول، وغيرها من الصفات. فقال سبحانه وتعالى ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ إذا نظرت إلى هؤلاء المنافقين، أعجبتك هيئة أجسامهم، من الصحة والبدانة، والقوة ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ مما يفيد بأن لا تغتروا بقوتهم، وهيئتهم، فعليكم بالحقائق، مما يعلم المؤمن أن لا يغتر بالمظاهر، بل عليه بالحقائق البشرية من كامل سيرتهم، لا من خصوص الموقف.

ومن صفاتهم كذلك ﴿ وَإِن يَقُولُوا ﴾ قولاً من الأقوال، ويتحدثون في شأن من الشؤون ﴿ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ تُصغي وتسمع وتنصت لحديثهم، لفصاحتهم وبلاغة منطقهم، وتحليته بما يحبه الْمُخَاطَب، فيغررون بمن يتحدثون إليه. مما يبين خطرهم، ووجوب الحذر منهم، وهذا يُعَلِّم المؤمن بأن لا يغتر بالهيئات والمناظر، وزخرف القول، والمداهنة، التي منشأها وأهدافها التغرير، والإيقاع بمن يخادعونه، ثم يتخلون عنه ساعة الحاجة، ووقوع الوقيعة به. بل يجب على المؤمن أن ينظر إلى الحقائق الفعلية. فهي التي تكشف الحقائق البشرية. ويمكن استصحاب ذلك في الحياة الاجتماعية، أولئك الذين يزينون للإنسان سوء فعله من الأفكار الخاطئة، وارتكاب المخالفات على اختلاف درجاتها وأنواعها، من أجل استمالة قلبه لهم، حتى يقضي لهم مآربهم وما يريدون ويبتغون. فالعاقل لا يغتر بمن يزين له اتجاهاته وأفكاره، بل ينظر أولاً في عموم حقائقهم الفعلية، وطرائقهم العامة، ليكتشف بها الواقع الحقيقي لهم.

ثم يخبر الله تعالى عن حقيقتهم المتمثلة في مخالفة هيئتهم لبواطنهم. فيقول تبارك وتعالى ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ فإن هيئتهم التي تُعجب من ينظر إليها، لا تعدوا حقيقتها الأخشاب الثابتة التي لا تتحرك من قوة صمودها، وعدم قدرتها على التجاوب. فإنهم كالأخشاب الثابتة التي لا حراك لها. فشبههم سبحانه وتعالى بالخشب الْمُسنَد الذي لا يفهم. فأصبحوا كالأشباح. فَمَثَلُهم كَمَثَلِ الخشب الأصم، الذي لا يفهم، ولا يفقه، فلا علم عندهم. ثم يؤكد سبحانه وتعالى ذلك بقوله عَزَّ وجل ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ فإن من خوفهم وهلعهم وجبنهم، وارتجاج قلوبهم أنهم كلما سمعوا وقوع أمر، أو حدث حادث ارتجفوا، خوفاً من أنه نازل وواقع بهم، وأنهم هم المعنيون بذلك.

فقد جمعت دلالة ﴿كُلَّ صَيْحَةٍ﴾ جميع أنواع ما يُفزِع أو يُخاف منه، أو أنه مظنة واقعة ستقع، أو نحو ذلك، فاعتقدوا أنهم هم المقصودون لا غيرهم، وأنها واقعة عليهم، لا على غيرهم. مما يبين أن حالهم في ذعر شديد، مخالف لهيئتهم وأشكالهم، وأقوالهم. مما يبين أنه لا استقرار ولا يقين عندهم، لأن قلوبهم خالية من الإيمان. وأن شأن الكفار مملوء بالرعب والخوف، والشك والريبة. بينما المؤمن في سكينة ووقار، لِمَا للإيمان من أثر على قوة القلب وشجاعته بتوكله على الله تعالى. لأن المؤمن لا يحمل إلا الخير، والصدق، والنوايا الصالحة الطيبة. مما يستدعي من كل مؤمن أن يحمد الله تعالى على نعمة الإيمان، وما يتبعه من الاستقرار والسكينة. وأن يدرك أن حال المنافقين والكفرة هو كما كشف الله تعالى عن حالهم. وهو تحليل عميق من رب العالمين، بما يحذر من عدم الانخداع بالهيئات والأشكال، وبزخرف القول وغُروره. بل يجب على المؤمن أن ينظر إلى الحقائق الفعلية. فهي التي تكشف وتُفصح عن الحقائق البشرية.

ثم يخبر الله تعالى بأن هؤلاء المتصفون بهذه المواصفات هم العدو الحقيقي، الذي يظهر في صورة وهيئة المؤمن والناصح والصديق. فقال تعالى ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ هؤلاء هم الأعداء الحقيقيين مما يستوجب الحذر منهم. فقد عينهم سبحانه وتعالى تعيناً مكشوفاً للمؤمنين، ثم أشار إليهم بقوله تعالى ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ للمبالغة في التخصيص الْمُوجِب للحذر منهم، لأنهم يظهرون أمام المؤمنين بالإيمان، ويبطنون الكفر والعداء. ﴿فَٱحْذَرْهُمْ﴾ فاحذر أن تثق في قولهم، واحذر خذلانهم لكم. واحذر نفاقهم الذي لا يتوافق مع قلوبهم، وكذلك ممالأتهم لأعدائكم. فقد ورد الحذر شاملاً، ليستجمع كل وجه من أوجه الحذر. وهذا من بلاغة البيان في القرآن الكريم.

ثم يأتي الطرد والإبعاد لهم من الله تعالى. فقال عَزَّ وجل ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: أخزاهم ولعنهم الله تعالى، وأبعدهم عن التوفيق والتسديد ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: إلى أي جهة ينصرفون إليها. لأنهم

يعدلون عن الحق إلى الضلال، فأخزاهم ولعنهم الله تعالى أينما اتجهوا، وإلى أي مكان يرحلون ويذهبون إليه، وإلى أي شأن يخوضون فيه. بما يفيد منع التوفيق والتسديد عنهم البتة. فالخذلان هو طريقهم أينما حلوا وارتحلوا. مما يبين أن من أبعده الله تعالى عن عنايته وتوفيقه فقد حل عليه الشقاء، والعنت. ولم يشعر بالطمأنينة والسكينة، مهما تظاهر بها. وفي هذا بيان لنعمة الإيمان الذي هو على نقيضه ونقيضهم. فنسأل الله تعالى العفو والعافية والهداية والتوفيق في الدنيا والآخرة.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾

ومن خصاص كفرهم أنهم يأنفون من أن يذهبوا للرسول صلى الله عليه وسلم ليستغفر لهم مما هم عليه من النفاق. فقال تعالى عنهم ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ وإذا قال لهم المؤمنون تعالوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يستغفر لكم ﴿ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ ﴾ أجابوا بهز وتحريك رؤوسهم أنفة واستعلاء وتكبراً ﴿ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ ﴾ ورأيت حالهم هو حال الإعراض من الصد والاستعلاء عن أن يطلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لهم. فيصدون ﴿ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ مستكبرون من أن يطلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لهم الله سبحانه وتعالى. مما يبين قوة وعلو الاستكبار الذي استولى على قلوبهم. فحاد بهم عن الخير، فإن شأنهم وحالهم أنهم قوم متعالين إلى أقصى درجات الكبر. وهذا يؤكد ويبين خطر الكبر على النفس البشرية، فإنه إذا استولى على الإنسان جعله أبعد الناس عن قبول الحق، وجعله ألصق الناس بالباطل. فنعوذ بالله تعالى من الكبر، ونسأل الله تعالى التواضع لنا ولأهلينا ولجميع المسلمين.

فمن دقة السياق الكريم في بيان صورتهم أن جمع في هيئة حالهم بين تحريك الرؤوس يميناً ويساراً ﴿ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ ﴾ وبين الصدود ﴿ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ ﴾ والصدود يمثل حالة الرد والعناد من شدة التكبر، ﴿ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ فأعطى البيان الكريم هيئة حالتهم وكأنك تنظر إليهم.

ثم من شدة غضب الله تعالى على هؤلاء المنافقين أنه أخبر سبحانه وتعالى بأنه لن يغفر لهؤلاء المنافقين المستكبرين سواء حصل الاستغفار لهم من رسوله صلى الله عليه وسلم أو لم يحصل. فقال عَزَّ وجل ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ فإن الاستغفار وعدمه مستويان في حقهم، فلن يغفر الله تعالى لهم أبداً. وفي وروده بهذا السياق للإفادة عن قوة المبالغة في قدر غضب الله تعالى عليهم. فإنه حتى ولو استغفر لهم الرسول صلى الله عليه وسلم أو لم يستغفر لهم، فلن يغفر الله تعالى لهم. قال السعدي رحمه الله تعالى: وذلك لأنهم قوم فاسقون، خارجون عن طاعة الله تعالى، مُؤثرون للكفر على الإيمان، فلذلك لا ينفع فيهم استغفار الرسول صلى الله عليه وسلم، لو استغفر لهم، كما قال تعالى[١] وفي هذا بيان لمنزلة ومكانة الرسول عليه الصلاة والسلام، فإنه حتى فيما لو استغفر لهم الرسول صلى الله عليه وسلم على مكانته ومنزلته الرفيعة فلن يغفر الله تعالى لهم. وبذلك ارتقى التشنيع لما هم عليه من النفاق إلى أقصى درجاته. فعندما تُريد استحالة أمر فتكون المبالغة بإظهار عدم الاستجابة حتى ولو تشفع فيه من له مكانة ومعزة ومنزلة، لإفادة الاستحالة. وفي هذا رفع لمقام النبي صلى الله عليه وسلم، وتشنيع لما هم عليه من النفاق. إذ حكم الله تعالى بما هم عليه من الكفر. ويفيد هذا البيان الكريم أن الكافر لا ينتفع بدعاء المؤمن له، فليس للكافر مغفرة، إلا أن يتوب في حياته ويستغفر من كفره ويدخل في دين الله تعالى. وفي هذا تأييس لهم من مغفرة الله تعالى لهم. وأن عليهم المبادرة قبل فوات الوقت. وهذا البيان هو من رحمة الله تعالى في الكشف للحقائق التي تُعَلِّم الإنسان الخطأ من الصواب، وأهمية التواضع، ومجاهدة النفس، وكسر الكبر أمام طاعة الله تعالى.

ثم علل ذلك تبارك وتعالى بقوله عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ فإن الله تعالى لا يوفق للهداية الخارجين على دينه. وسماهم الله سبحانه وتعالى ﴿ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ لأن الفسق هو الخروج عن الشيء. فقد خرجوا عن دين الله تعالى، وإن الله تعالى لا يوفق من خرج عن دينه، فمن ترك الهداية بعد أن تبينت واتضحت له، وحاد وخرج عنها، فإن الله تعالى لا يتولاه بتوفيقه للإيمان، لأنه آثر الكفر على الإيمان والطاعة، فخرج عن طاعة ربه سبحانه وتعالى. وبالتالي انحجبت عنهم الهداية والتوفيق لها. فإن كل

---

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٥/٢٤٥)

من عرف دين الله تعالى، وحاد عنه، وعن اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم فإن الله تعالى يعاقبه بأن لا يوفقه لإصابة الخير والنجاة. مما يفيد أهمية الحذر من الاستكبار والحسد، ومصادمة دين الله تعالى. وفي هذا تحذير من الله تعالى لكل من يشاقق الرسول صلى الله عليه وسلم، ودينه العظيم، وأن عليه أن يتأمل ما حصل لهؤلاء المنافقين من الخاتمة بالكفر. فنسأل الله تعالى حُسن الخاتمة لنا ولجميع المسلمين.

ثم يخبر الله تعالى ببعض أعمالهم التي تُظهر حقائق النفاق فيهم، وبغضهم للمؤمنين، وقوة كفرهم الذي لا يستحقون به أن يستغفر لهم الرسول صلى الله عليه وسلم. فقال تعالى ﴿ **هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ** ﴾ هؤلاء المنافقون هم الذين يسعون بالفعل والقول للناس في مجالسهم ولقاءاتهم أن لا يمدوا يد العون لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ **هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ** ﴾ أي: على أتباعه صلى الله عليه وسلم من أصحابه المهاجرين الذين يقفون مع رسولهم صلى الله عليه وسلم في كل شأن وأمر. فلم يكتفوا بما هم عليه من النفاق بل يسعون بالشر في محاربة الرسول صلى الله عليه وسلم، وأصحابه رضي الله عنهم.

ثم عينوا الهدف والمقصد الذي يريدون تحقيقه ﴿ **حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ** ﴾ حتى يتفرقوا عن الرسول صلى الله عليه وسلم بحثاً عن سد حاجتهم، فيصبح الرسول عليه الصلاة والسلام وحيداً بين الناس كما يتمنون. مما يبين شدة كرههم وبغضهم للرسول صلى الله عليه وسلم. وأنهم يستخدمون كل وسيلة ممكنة، حتى تحريض الناس على منع الخير. مما يبين قوة جهلهم بقياس غيرهم على أنفسهم. معتقدين أن ذلك يُفرق المؤمنين، ويُبعدهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما عرفوا أن محبة أصحابه رضي الله عنهم قد بلغت مقاماً عظيماً ورتبة لا تدانيها رتبة في الوفاء والمحبة والفداء. حتى ولو يفتدي الواحد منهم الرسول صلى الله عليه وسلم بنفسه وبماله وولده، وبجميع ما يملك. مما يبين أن الجاهل والبخيل والكاره يقيس الناس على نفسه، فَيُخطِئ في الحسبان بظنونه الباطلة، ومفاهيمه السقيمة.

وقد استفتح البيان الكريم بقوله عَزَّ وجل ﴿ **هُمُ** ﴾ باسم الإشارة الذي يعينهم، ويشير إليهم بأسوء ما هم عليه ﴿ **هُمُ ٱلَّذِينَ** ﴾ هؤلاء المنافقين هم لا غيرهم الذين يحثون ويطلبون من الناس الإحجام عن معاونة المؤمنين بالنفقة. وفي هذا تعظيم لشناعتهم بالوصف وكمال السياق الذي يُظهرهم بأسوء أحوالهم في النفاق والعداء.

ثم يجيبهم ويرد اللهُ تعالى عليهم، بأنه هو الغني عنهم، وبالتالي هو الذي يغني رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من خزائنه التي لا تنتهي. فقال تعالى ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فإن لله عَزَّ وجل خزائن السماوات، بما يمنحه ويقدره مما يشاء لمن يشاء من العطاء. وأخبر عن ذلك سبحانه وتعالى بأسلوب التعظيم ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ أي: جميع ما حوته السماء، ومن ذلك تقدير الأرزاق للعباد من السماء. وما يكون من نزول المطر، ثم الإنبات في الأرض. وكذلك له خزائن الأرض ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ بما فيها من المياه، والبحار وما حوت، والمعادن، والزروع وعموم ما حوته الأرض، مما لا يحصيه الإنسان. وكذلك ما يُقَدِّرُه عَزَّ وجل من إنبات الأرض، والأرزاق التي لا حصر لها ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ ولكن الأمر والشأن هو أن المنافقين لا يفهمون الحقائق الإيمانية لبعدهم عن الإيمان. فليس عند المنافقين الفهم الذي يجعلهم يدركون أن الرزاق هو الله تعالى، وأنه هو مسير الأسباب، وأن له خزائن السماوات والأرض. ولذلك اعتقدوا أن في منع النفقة ما يتفرق به المؤمنون عن الرسول صلى الله عليه وسلم. فلوا كانوا يفقهون حقائق الرزق، وعظمة ملك ربهم تبارك وتعالى لَمَا فهموا هذا الفهم القاصر. مما يبين أن الجاهل بربه سبحانه وتعالى جاهل في فهم الحياة، وفهم التدبير، وأنه قد حصر فهمه وتفسيره وتأويله لأمور الحياة بما يوافق قصور عقله ونظره، وفهمه العليل. وأما العالم بربه فإن أفهامه تتسع لمجريات الحياة، وإدراك قوة تدبير الله عَزَّ وجل، فيكون فهمه على نور وبصيرة من ربه جَلَّ في علاه.

وهذه الكشف للأحوال النفسية عند المنافقين، وقصور فهمهم، هو من دقائق البيان في القرآن الكريم. وبما يفيد أهمية فهم العدو من خلال معرفة نفسياتهم، وطريقة تفكيرهم، ومحور أفكارهم التي تكشف قصورهم، ومناطق ضعفهم، وفهمهم في كل مجال من مجالات الحياة. وألا يكون التركيز في فهم العدو على ما يظهر منه من النفاق، بل في تحليل عموم تصرفاته التي تكشف مرتكزات ضعفه. بل يستوعب هذا أهمية فهم جميع الجوانب الأخرى عند التقييم لهم، ولغيرهم.

ثم يذكر تبارك وتعالى المزيد من أقوالهم التي تكشف ضمور فهمهم، وقصور تفكيرهم. فقال عَزَّ وجل ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يقول المنافقون فيما بينهم لئن رجعنا من هذه الغزوة إلى المدينة ﴿ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾ يقصدون بالأعز أنفسهم، ويقصدون بالأذل الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين. فلئن عدنا إلى المدينة لَنُخْرِجَنَّهم من المدينة. مما يدل ويبين قوة التباهي والغرور الذي يعيشونه نتيجة ضعف وقلة فهمهم، وقصور إدراكهم للحقائق الربانية التي هم عنها غافلون. فَيُمَنُّون أنفسهم بما

ليس له حقيقة ولا واقع، ولا إمكانية له أن يتحقق. ومما يكشف تباهيهم مع ضعفهم فهمهم لمجريات الأمور، وقصور تفكيرهم وغرورهم أمام الدلائل الظاهرة أمامهم، من أن النصر يسير مع الرسول صلى الله عليه وسلم ومع المؤمنين، بتوفيق من الله تعالى وعونه.

فيرد الله تعالى عليهم بما يذهلهم ويكيدهم، بأن حصر العزة له عَزَّ وجل، ولرسوله عليه الصلاة والسلام، وللمؤمنين. فقال تبارك وتعالى ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فإن القوة والغلبة والتمكين والسلطان لله تبارك وتعالى، ويمنحها بقدرته لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وكذلك للمؤمنين. بما ينفيها عن غيرهم، ومنهم المنافقون. وبالتالي قصر الذلة والمهانة على كل من نازع الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين في عزتهم. وهذا يبين ويفيد قوة معية الله تعالى لدينه، وللمؤمنين في كل وقت وحين. مما يغرس في المؤمن قوة الأمل وقوة الاعتماد على الله تعالى، والتوكل عليه.

ثم يخبر تبارك وتعالى عن قوة جهل المنافقين، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ولكن المنافقين بسبب ما هم فيه من الجهل لا يعلمون بهذه الحقائق. فإن عدم فقههم، جعلهم لا يعلمون الحقائق الربانية. ومن جميل البيان ودقائق السياق أن الله تبارك وتعالى ذكر في الآية السابقة في وصفهم بأنهم لا يفقهون ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ وفي هذه الآية التي تلتها قال عَزَّ وجل عنهم ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فَرَتَّبَ على عدم الفقه عدم العلم. لأن عدم الفقه يؤدي إلى عدم العلم. فقدم البيان العظيم انتفاء الفقه الذي هو ثمرة العلم، باعتبار الفقه أصل للعلم. فمن لا يفقه لن يعلم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾

بعد أن كشف الله تعالى حال المنافقين من كل وجه أقبل البيان الكريم على المؤمنين في ختام هذه السورة الكريمة بالتوجيه العظيم الذي يحذرهم من الانشغال بأموالهم وأولادهم عن ذكر ربهم سبحانه وتعالى، وأن من فعل ذلك فقد تحققت له الخسارة التي لا يمكن له إدراك معالجتها. فقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾

يا من آمنتم بربكم، وصدقتم برسولكم، وعملتم بدين ربكم، حتى أصبح الإيمان صفة لكم، إياكم أن تنشغلوا بما يلهيكم عن عبادة ربكم وطاعته. وقد خص الله سبحانه وتعالى من ذلك أعظم ما يُلهي الإنسان، وهما: الأموال والأولاد. وذلك لقوة تأثيرهما على الإنسان، وبالتالي يدخل فيها ومعها ما هو دونهما. وهذا من قوة تشخيص الأسباب من الله العزيز الحكيم، العالم بعباده بأدق العلم وأجَلَّهُ تبارك وتعالى. فإن من يفعل ذلك فقد تحققت له الخسارة في الدنيا والآخرة.

وقد افتتح الله تعالى توجيهه الكريم بنداء المؤمنين بأرفع الألقاب وأجلها ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ بما يفيد التزكية لهم بالإيمان من ربهم عَزَّ وجل، وهي منحة ونعمة عظيمة، ومنزلة كريمة. وفي مخاطبتهم بأسلوب النداء ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ﴾ ما يسترعي أسماعهم، ولفت انتباههم لأمر عظيم جليل، فيستدعي أسلوب النداء الآذان للإصغاء، والعقول للانتباه إلى ما بعده من كلام وخطاب رب العالمين، مما يدل على أهمية ما نادى إليه ربنا تبارك وتعالى من البيان، وما يجب تجاهه من الأخذ والاهتمام به؛ مع قوة الالتزام.

وهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه، ووجوب إرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه وبيان، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية، وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان. قال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا سمعت الله يقول ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه[1] فهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه لمؤمنين بإرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية. وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان، التي هي من أرقى درجات الوصف، وما يستلزمه هذا الوصف من الامتثال بما آمنتم به، وكذلك تَحْمِلُ في دلالتها التكريم للمُخَاطَبين، وتشجيع وترغيب لهم في متابعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. إذ ناداهم ربهم بصفة الإيمان، وهي رتبة عظيمة ومنحة كريمة أن ينادي ربنا تبارك وتعالى عباده برتبة الإيمان، والتي تحمل إثبات الإيمان لهم، والتزكية لإيمانهم، بما ينتفي معه التعذر من عدم الوفاء بمضمون ما نُودوا له؛ وخُوطِبُوا وأُمِرُوا به.

ومن الفوائد السلوكية العملية: إذا كان الله سبحانه وتعالى يفتتح خطابه وتوجيه للمؤمنين بأحسن وأعظم الألقاب، وهو ربهم ومالكهم، وهم عبيده، وتحت سلطانه عَزَّ وجل. فإن العبد أحوج إليه في أسلوب مناداته ومخاطبته لغيره من المخلوقين، خاصة عند التوجيه والطلب أو الأمر، فإنه أدعى للتفاعل والقبول، وتليين القلوب. ويفيد كذلك بالقياس عليه أهمية افتتاح الكلام في مخاطبة الناس بأحسن الكلام وأجله وأرفعه، فإنه أدعى للاستماع والقبول، والتفاعل الجميل، والبعد عن الجفاء في الخطاب.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٢)

ثم بعد هذا المدح الكريم يأتي النهي عن الانشغال بالمال والأولاد عن عموم الطاعات لله تعالى، فبدأ البيان والتوجيه الكريم بالنهي عن الالتهاء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ ﴾ لا تنشغلون بما يلهيكم، فلا تجعلوا الأموال والأولاد شغلكم الشاغل لكم عن الطاعة. وخص سبحانه وتعالى الأموال والأولاد من بين جميع ملهيات الدنيا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ ﴾ لا تُضَيّع وتُفَوِّت عليكم أموالكم وأولادكم ذكر ربكم. فخص الأموال والأولاد باعتبارهما الأكثر اشتغالاً بها عن غيرها. وذلك لقوة تأثيرهما على الإنسان. وهذا من قوة تشخيص الأسباب من الله العزيز الحكيم، العالم بعباده بأدق العلم وأجَلَّه تبارك وتعالى. فإن من يفعل ذلك فقد تحققت له الخسارة في الدنيا والآخرة. وقد قصر النهي فيما يخص طاعته سبحانه وتعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾ فتخصيص ذكر الله تعالى لأنه هو الهدف والغاية من خلق الإنسان، كما قال تعالى في سورة الذاريات ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ فإن الغاية من خلق الجن والإنس، وما بعث الله تعالى من الرسل، وما أنزل من الكتب إلا لمقصد واحد فقط، وهو عبادة ربهم وحده لا شريك له، وفق ما أمر وشرع. لأن طاعة الله تعالى هي المرتبة الأولى، والتي يجب ألا يُقَدَّم عليها غيرها مهما بلغ الولع والاهتمام بها.

وقد ورد التعميم للطاعة بدلالة ﴿ ذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾ والتي استوعبت جميع العبادات، وكل ما هو حق لله تعالى. وإذا كان هذا مع أحب الأشياء للنفس البشرية التي هي الأموال والأولاد، فما هو دونها أولى. فقد أعطى تخصيص الأموال والأولاد عمقاً عظيماً في دلالتها. لأنهما أحب مطالب الدنيا عند الإنسان. وبهذا فقد أثبت سبحانه وتعالى الأثر العظيم للمال والأولاد في الانشغال عن طاعة الله تعالى، بما يعطي التنبيه والحذر من الغرور بهما، خاصة وأن مآلهما إلى الزوال، والتغيير، سواء من حيث القلة أو الكثرة، ووجوداً وعدماً، وأن مآل صاحبها إلى الزوال عنها، أو أن تزول عنه قبل أن يزول عنها، فلا يبقى للإنسان إلا عبادته لربه سبحانه وتعالى.

ومن بلاغة البيان في مجال معرفة خصائص النفس البشرية أن قَدَّم المال على الأولاد ﴿ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ ﴾ وذلك لشدة حب الإنسان للمال، حتى أنه الأكثر إلهاء له من الأولاد، وربما انشغل عن أولاده بالمال، وأضاع مسؤوليته عنهم بسبب الاشتغال بجمع المال. ففي التقديم والتأخير دقة في الكشف عن الخصائص البشرية، وأولوياتها في الالتهاء، والأقوى أثراً في الالتهاء عن طاعة الله تعالى. مما يدل على الإعجاز البياني في ترتيب المؤثرات بحسب قوة تأثيرها، وتغايرها في كل شأن وأمر. مما يبين ويُظهر دقة القرآن العظيم الذي بلغ به الإعجاز كماله.

ومن بلاغة البيان أن دلالة ﴿أَمۡوَٰلُكُمۡ﴾ قد استوعبت جميع الممتلكات، فتشمل جميع ما يتمول به الإنسان، ويملكه سواء من الذهب أو الفضة، أو النقود، أو المباني، أو المزارع، أو الأنعام والحرث، وغيرها. وكذلك دلالة ﴿أَوۡلَٰدُكُمۡ﴾ التي وردت بصيغة الجمع، لتعطي التكاثر، فكلما كثر الأبناء والبنات زاد الانشغال بهم. لأن الرجل يتقوى بهم، ويتزين بكثرتهم، وهم عون له في الشدائد. وقد قال تعالى في سورة الأنفال ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ ﴾ أي: أن في هذا ابتلاء واختبار للمؤمنين. أتطيعون ربكم أو تنشغلون بها عن طاعته، وتجعلونها طريقاً للمعصية، واستخدامها في معصيته سبحانه وتعالى، مما يفيد أن نعم الله تعالى على العبد تحمل جانب التفضل بها، وجانب الابتلاء والاختبار، وأن على العبد أن يكون حصيفاً في ترتيب الأولويات. ومن دقائق البيان الكريم أن الله تعالى لم ينه عن الاهتمام بها، بل عن الالتهاء بها عن طاعته. بما يفيد ويعني: فلا يصل بكم الأمر إلى أن تشغلكم هذه النعمة عن طاعة ربكم، الذي تفضل بها عليكم.

وأفادت دلالة ﴿تُلۡهِكُمۡ﴾ أن للمال والأولاد انشغال وتسويف متتابع ومتتالي لا ينقطع ولا يتوقف، وذلك لِمَا لهما من المحاسن والجمال والبهجة والفتنة الجاذبة للإنسان حتى عن عبادة ربه سبحانه وتعالى، ولذلك ورد التنبيه والتحذير، لأن الإنسان يتوق إليهما في إعجاب ومحبة، بل ويتزين بهما، لأنهما أقوى زينة الحياة الدنيا كما ورد ذلك في سورة الكهف. فقال تعالى ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴾ فقد أجمل وحصر الله تبارك وتعالى أعظم مؤثرات زينة الحياة الدنيا في هذين المؤثرين، لشدة تأثيرهما.

وهنا لم ينف سبحانه وتعالى عن الأموال والأولاد الأثر والحقيقة من المنافع العظيمة لها، فَيُزَهِّدُهم فيها، بل نوه إلى عدم الالتهاء بها عن طاعته جَلَّ جلاله. فورود البيان لقوتهما في التأثير من أجل التحذير من الانشغال بهما عما ينفع العبد من طاعة الله تعالى، وعن الغاية التي خُلِق من أجلها، وهي عبادة الله تعالى. فليس البيان هو بيان تزهيد فيهما، بل بيان تصحيح وتوضيح لحقيقتهما، لِيُحسن العبد استخدامهما واستعمالهما وفق منهجه سبحانه وتعالى. ويكون عاقلاً في ترتيب أولوياته. وفي هذا البيان من الله تعالى منهج تعليمي في استخدام وترتيب الأولويات، ومعرفة التفاضل بين الأمور، وأن على المؤمن ألا يجعل المفضول متقدم على الفاضل، بل يضبط الترتيب وفق منهج الله تعالى. وفي هذا ارتقاء بعقل المؤمن في كيفية ترتيب الأولويات، وتحليل الأمور وفق ضوابطها، بأن لا يجردها المفردات عن الأصول.

مما يبين أن منهج الإسلام قائم على ترتيب الأولويات بما يعلم عباده العلم والفقه، والفهم الذي يجعلهم يميزون الأمور في ترتيبها الترتيب الصحيح. فعليكم أن تعتنوا أولاً بالأخير والأفضل. وتأجلون المفضول لوقته وحينه. فلا تقدموا المفضول على الفاضل. مما يبين دقائق القرآن الكريم في التعليم والتشجيع والتحفيز. وأهمية ترتيب

الأولويات، خاصة عندما يكون هناك أولويات وفضائل متعددة، فإن في ترتيبها الترتيب الصحيح ما يدل على فقه وعلم صاحبها. وأن مَن لم يُحسن ترتيب الأولويات، ويقدم مصالح الآخرة على حظوظ الدنيا فإنه إلى الخسارة ذاهب. وبما يفيد أن العلم الحقيقي هو الذي يَظهر على صاحبه في التطبيق والممارسة العملية.

ثم أخبر تبارك وتعالى بالنتيجة التي يتحصل عليها من لا يعمل وفق ترتيب ومنهجه عَزَّ وجل. فقال تعالى ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ وأن من يلهيه ماله وأولاده عن عبادة ربه، وطاعته ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ فهؤلاء هم الذين تحققت فيهم الخسارة الحقيقية، بفقدهم خير الدنيا والآخرة، وهي طاعة ربهم ودخول الجنة التي هي السعادة الأبدية التي لا تنقطع. وقد أشار تبارك وتعالى إلى الالتهاء بالمال والولد باسم الإشارة ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ﴾ لإظهار السببين الرئيسين: وهما الالتهاء بالمال والولد. ثم أشار البيان إلى الفاعلين لذلك بقوله تعالى ﴿ فَأُولَٰئِكَ ﴾ للتنويه والتنبيه بهم، بما يفيد التحذير من فعل ذلك.

كما أشار البيان إلى الفاعلين بأسلوب القصر، بقوله عَزَّ وجل ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ فقصر سبحانه وتعالى الخسارة على الذين التهوا بأموالهم وأولادهم عن ذكر ربهم سبحانه وتعالى. بما يفيد المبالغة بأسلوب القصر. ليعطي البيان بهذا الأسلوب التحذير من تحقق الخسارة بتلك الأفعال الخاطئة، التي هي الالتهاء بالمال والولد. وهذا كله من فضل الله تعالى في تنبيه العباد إلى أهمية ترتيب الأولويات حتى لا تحصل لهم الخسارة التي لا يمكن تعويضها أبداً إذا فاتت بموت الإنسان. وهذا من رحمة الله تعالى بالعباد، إذ يعلمهم ما ينفعهم، بأحسن الأساليب، وأدقها في الفهم والبيان.

وهذا البيان الكريم يوضح ويُظهر فضل نزول القرآن مفرقاً، ليعالج مفاهيم العباد، ويصحح لهم مداركهم، وأخلاقهم، وأولويات عبادتهم، وفهم حقائق التفاضل، وترتيب الأمور بحسب التفاضل الصحيح، وأن ذكر الله تعالى بعبادته مُقَدَّم على كل شيء، وأنها السبب في تحصيل الفوز. ويكونوا بذلك أسوة لغيرهم ولمن بعدهم. ولذلك تعلم الصحابة رضي الله عنهم، حتى أصبحوا قدوات لغيرهم، فقدموا لنا الأسوة والنماذج الرائعة في جميع أبواب الخير.

ثم يرشد ويوجه سبحانه وتعالى المؤمنين إلى أهمية العناية بالنفقة في أوجه الخير، لتحصيل الثواب من الله الرحمن الرحيم، وأن لا يؤجلوا ذلك حتى يحين الموت. فقال تعالى ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ وأنفقوا أيها المؤمنون من بعض ما رزقناكم ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم ﴾ والإنفاق هو بذل وصرف المال

والمعروف، وأنواع الخير في أبواب الخير المختلفة. وقد ورد الإنفاق هنا بصيغة الأمر لإفادة الملازمة والمتابعة للإنفاق. كما ورد بصيغة التبعيض ﴿مِّمَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ بما يفيد أي ليس الشأن هو أن تنفقوا جميع ما رزقناكم، بل بشيء منه. كما أن من لطفه تبارك وتعالى أنه لم يحدد الكمية والمقدار، بل جعلها بحسب تقدير الْمُنْفِق وسخائه وكرمه، وحاجته وتقديره للموقف وحاجة من يُنفق ويتصدق عليهم، ويبرهم بالعطاء. وشملت لفظة ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم ﴾ جميع أصناف الرزق، ولم يُحصر في نوع معين، لتستوعب جميع عطاء الله تعالى ورزقه، من علم ومال وطعام، وكسوة، وأنعام، أو جهد بدني، أو جاه، فجميعها وغيرها هي أرزاق من فضل الله تعالى. كما استوعبت دلالة ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم ﴾ زكاة الأموال، والنفقة الواجبة، وصدقة التطوع. قال: ابن عباس رضي الله عنهما: زكاة الأموال. وعن الضحاك رحمه الله تعالى: أنها النفقة في الحقوق الواجبة بالمال. وعن الماوردي رحمه الله تعالى: أنها صدقة التطوع(١) وقال ابن عاشور رحمه الله تعالى: وفعل ﴿ وَأَنفِقُواْ ﴾ مستعمل في الطلب الشامل للواجب والمستحب(٢) وهذا من رحابة البيان في استيعابه للمقصد والمراد بأبلغ الكلام، فهي شاملة لجميع أنواع الإنفاق من الرزق، لأن الله تعالى لم يحصرها في باب محدد مُعين.

بل ونسب سبحانه وتعالى الرزق الذي عند العباد له عَزَّ وجل ﴿مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ ليعطي المؤمن بهذه الحقيقة أن الله تعالى هو الذي أنعم عليكم بما عندكم من أنواع الرزق. وبالتالي هو الذي يعوضكم عما أعطيتم وأنفقتم. فلا تجعلوا أيديكم قاصرة على أنفسكم، بل توسعوا في الإنفاق بالعطاء في أوجه الخير. وهذا من لطفه سبحانه وتعالى وعظيم منهجه العظيم، وكريم حكمته عَزَّ وجل. وفيه كذلك من الفوائد: إثبات أن ما عند العبد من رزق، فهو من الله تعالى، تفضلاً منه وكرماً. كما لم يحدد البيان وجهاً محدداً ومعيناً من أوجه الصرف، بل جعله عاماً. ليستوعب جميع الأوجه المناسبة لما يملك الْمُنْفِق. وهذا من رحابة هذا الدين، ومن عنايته بتداول الخير وانتقاله وتنقله بين العباد. وسمو أخلاق الإسلام، وعنايته سبحانه وتعالى بأحوال عباده، وتعليمهم التعاضد والتكافل، والتراحم. كما ورد ذلك التوجيه الكريم بأدق البيان في سياقه وتراكيب ألفاظه البلاغية.

ثم بعد ذلك استثارت الآية الكريمة عند المؤمنين، جانب الإنفاق بسخاء وكرم، من خلال تذكيرهم بالموت، ومفارقتهم للمال، ومفارقتهم للحياة الدنيا، وإقبالهم على الله تعالى. فقال تعالى ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ ﴾ فأنفقوا من قَبْلِ أن تعاينوا مظاهر الموت؛ فيحصل التحسر والندامة

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨/٣١)

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١١/٥٤٦)

على ما فَرطم وقت رحابة وسعة الحياة. فعليكم باغتنام حياتكم الدنيا التي تنتهي بالموت. وفي ذلك حث للمؤمن على الاستفادة من أسباب تحصيل وتوظيف الخير لمصلحته في الآخرة، وذلك باغتنام أمور الدنيا قبل مغادرتها بلا رجعة إليها، إلا بما قدم المؤمن في دنياه لآخرته. ففيها الحث على اغتنام الفرصة، بأسلوب التذكير والتحذير التشجيعي الذي يدفع المؤمن لاغتنام فرصة الحياة، وفرصة الصدقة في الدنيا.

ثم إن المستفيد من هذا هو المؤمن المنفق، بما سيجده أمامه في الآخرة، فيرفعه اللهُ تعالى به درجات عالية، ويمحو به السيئات والتقصير. كما أن في هذا الأمر من الله العزيز الحكيم ما يدل على أهمية النفقة ووجوبها إن كانت في دائرة الوجوب كالزكاة، أو ما هو متعلق بواجبات النفقة المختلفة، أو كانت في دائرة الفضائل من التطوع ونحوه. إضافة إلى فضلها على المنفق في الآخرة. مما يبين عناية منهج الإسلام بالتواصل الاجتماعي من خلال النفقة، وتفقد أحوال الآخرين، ومواصلتهم بالإنفاق والعطاء في كل باب يستطيع عليه المؤمن. وكذلك في هذا التوجيه الكريم عناية الله تعالى بالمحتاجين على اختلاف حاجاتهم.

وقد وجه البيان الكريم المؤمنين بإيضاح واقع الحال لهم حين وقوع الموت ودخول العبد عالم الآخرة، إذ يقول العبد متحسراً على تفريطه ﴿ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ فحينها يسأل العبد ربه سبحانه وتعالى راجياً، ومتوسلاً أن يؤجل له موته، فيقول راجياً ربه عَزَّ وجل: ﴿ رَبِّ ﴾ أسألك يا ربي أن تؤخر موتي قليلاً، ليستدرك ما فاته من فعل الخير، واشتغاله عن ذلك بالتلهي بالمال والولد. فيقول ﴿ لَوْلَآ ﴾ أي: هلا ﴿ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ بأن تمدني في الأجل يا رب، فتزيد لي في الحياة لوقت وأمد قريب، أي: ليس طويلاً، حتى أتدارك ما انشغلت عنه ﴿ فَأَصَّدَّقَ ﴾ حتى أتصدق في أوجه الخير، وكذلك ﴿ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ وأكن من عبادك الذين اتصفوا بالصلاح، وهم الذين يؤدون المأمورات، ويجتنبون المنهيات. وحينها لا تنفع تلك الأماني والحسرات، لفوات وقتها. بل ومن شدة الرغبة يقول ﴿ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ بما يفيد أنني لا أطمع في الكثير، بل وقتاً يسيراً أتمكن به من الإنفاق، والعمل بالصالحات، حتى أدخل في عبادك الصالحين، الناجين من العذاب، والداخلين جنات النعيم.

وهذا البيان هو توجيه من الله تعالى بأسلوب الإنذار للمؤمنين، ليحتاطوا لآخرتهم من سعة الحياة التي يعيشونها، وأن لا يفرطوا فيها، فإن ساعة الموت لا يعلمها العبد إلا وقد أتته فجأة. بل إن البيان الرباني أورد مجيء الموت بأسلوب الإتيان ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ فالموت هو الذي يأتي للإنسان، ولا يعرف متى يأتيه ويأخذه عن الدنيا. وهذا البيان والتنبيه نعمة من الله تعالى للمؤمنين المصدقين، بأن يستغلوا

دنياهم بالصدقة والطاعة قبل مفاجأة الموت لهم. ونسأل الله تعالى أن يجعلنا والمسلمين من عباده الصالحين، وأن يحسن خاتمتنا.

ثم يختم الله تبارك وتعالى هذا التوجيه والوعظ العظيم بأنه لا تأخير ولا استجابة لمطالب من حضره الموت. فقال تعالى ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فإن الله تعالى ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا ﴾ فلن يَمُد الله تعالى في عمر أحد ﴿ إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ﴾ أي: حين انقضاء مدتها، فإذا انقضى العمر وحان الأجل، وقد قضى الله تعالى له بالموت فإنه لا يؤخره أبداً، فإنه أمر قطعي، لازم الحصول ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فإن ربكم جَلَّ جلاله عالم بمواقع الأمور، وخفايا الأشياء. وقدراتكم، وتباينكم في ذلك. فإن ربكم سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيء منكم. فإن ربكم خبير بما تعملون، فلا يخفى عليه شيء من أعمالكم وأفعالكم وأقوالكم التي تحدث منكم، فاحذروا من مخالفة ما يأمركم به ربكم، وما ينهاكم عنه سبحانه وتعالى، أي: فاحذروا من التقصير فيما يأمركم به عَزَّ وجل. فإن ربكم جَلَّ جلاله عالم بمواقع الأمور، وخفايا الأشياء. وقدراتكم، وتباينكم في ذلك. فمن كانت هذه صفاته المجيدة سبحانه وتعالى، فلا يغيب عنه شيء أبداً، فهو خبير بمواضعها، ومقاصدها، وما يكتنفها من أمور. مما يتطلب مراقبة الله تعالى في السر والعلن.

وفي هذا الإخبار الدقيق ما يغرس في الْمُخَاطَب الانتباه، واليقظة، والحرص على عدم ترك المأمورات، والحذر من فعل الذنوب، حتى من أصغر الصغائر، والتوقي منها بكل ما يستطيع المؤمن. وفي هذا بيان لكمال قدرة الله تعالى ولطفه وعظيم علمه الذي شمل جميع مخلوقاته، في سكونهم وتحركاتهم، وفي أماكنهم، أينما كانوا، وكذلك العالم بقدراتهم وإمكاناتهم، فلا يغيب من خلقه عنه شيء أبداً سبحانه وتعالى. وفي هذا العلم بأن الله تعالى خبير تقوية للمؤمن، إذ يعلو ويزداد به إيمانه، ويقوى في مواجهة تغرير النفس والشيطان من التسويف والخذلان، فيغرس فيه الحرص والاجتهاد في الطاعة، والبعد عن المعصية والتسويف في عمل الخير وعموم الطاعة. فسبحان الله العليم الخبير.

وقد ورد التحذير من الله سبحانه وتعالى بتخصيص العمل ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فخص به ما يعملون، لأنهم محاسبون عليه. وإن من كمال علم الله تعالى أنه ﴿ خَبِيرُۢ ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ بما يكون منكم من الأعمال. وأكد ذلك باسمه الأعظم سبحانه وتعالى، الموضح والْمُبَيِّن لعظمته جَلَّ جلاله ﴿ وَٱللَّهُ ﴾ فهو الله صاحب الاسم الأعظم، وما يتبعها من دلالة الألوهية والربوبية، والوحدانية. ثم تلاه وأعقبه بصفة الخبير ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ الذي يفيد التمكن بعلمه وإدراكه ومعرفته بأحوالكم. فدلالة الخبير

تزيد عن العلم بمعرفة أحوالكم وطبائعكم، وقدراتكم. فمن امتلك ذلك فإنه لا يخفى عليه شيء أبداً من أحوالكم، فكل شيء مكشوف له عَزَّ وجل.

وهو أسلوب في غاية الإبداع من كل وجه، ومن ذلك التدرج في السياق، بالنداء، وتسمية المخاطبين بأحسن التسميات والأوصاف. ثم النهي عن التلهي بالمال والأولاد عن ذكر ربهم سبحانه وتعالى. بما يستلزم وجوب التقوى، وما يلزم من الاستعداد لليوم الآخر قبل حلول الموت. وقد أورد ذلك سبحانه وتعالى بأحسن الأساليب، التي تحذر المؤمن من التسويف. ثم الإخبار بكمال علمه جَلَّ في علاه. لينتقل بالعباد إلى مهابته، والترهيب من علمه، ووجوب طاعته، والإخلاص له عَزَّ وجل. وكل ذلك من أجل حث المؤمنين على المزيد من طاعته سبحانه وتعالى، والامتثال لدينه، حتى يفوزوا بالآخرة. وهذا من رحمته تبارك وتعالى بالمؤمنين، وعنايته بهم جَلَّ جلاله.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة المنافقون. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.